غريب جدًّا

منذ أكثر من ساعتين و«زعتر أفندي».. قابع في صالة شقته في عتمة الليل، عيناه مفتوحتان، وبصره غير مستقر..

و«زعتر».. ليس هذا اسمه بشهادة الميلاد.. فكيف ذلك وهو مدرس اللغة العربية.. الطويل العريض.. ذو الرأس الكبير و«الكرش» المنتفخة.. وكيف لوالده الحاج «معاذ» شيخ البلد المهاب أن يسميه بذلك الاسم المثير للضحك والسخرية؟! الحقيقة أنه من اختراع الطلبة «الأشقياء» ولهم مبررهم وفق هواهم.. في البداية، كان اللقب الجديد يثير حنقه ويطلق ثائرته.. ولكن بمضي الأيام والإصرار على دعوته به لسهولته أو لغرابته.. أو لكونه مناسبًا! إذا كان لهذا أو ذلك أو تلك.. فلم يجد مناصًا من الاعتماد عليه واستساغ طعمه اللاذع..

ولو لم يأتِ «زعتر أفندي» بأعمال وتصرفات مثيرة للضحك ما ضحك منه الطلبة، وما جعلوه هدفًا لتعليقاتهم وأحابيلهم دون باقي مدرسي المدرسة.. وهو من أولئك الذين يرفضون التجديد، ويعتبرونه خروجًا عن أصول اللياقة وقواعد الأخلاق.. هذا ما يمليه عليه عقله الدائم الخصام مع كل جديد! فالقديم عنده هو العريق الأصيل.. والذي يستمد منه أسلوبه وطريقة معيشته وكيفية تعامله مع الآخرين.. ولذا، كان لا يجد نفسه ولا يشعر بكرامته إلا في إجازاته حين يزور قريته مسقط رأسه.. فهناك يستشعر العزة في احترام أهل القرية وعشيرته الذين لم يعرفوا بلقبه الجديد.

ضاق زعتر أفندي بالظلام.. قام وأضاء المصباح.. سحب جريدة الأمس.. فتحها وتأمل سطورها المتراصة.. لم يقرأ شيئًا، فقد سرح بخياله بعيدًا!.. في المدرسة.. في ذلك الفصل.. «ثالثة ثالث».. وقف أمام الباب يلوك بفمه، ويلعق بقايا الطعام من على شفتيه.. فلا يصح أن يدخل على هذه الصورة.. فجأة.. تمثل الجد إذ عقد حاجبيه وأطبق شفتيه، وتنحنح بصوته الغليظ.. ثم دخل مندفعًا وصدره إلى الأمام.. حين ضجَّ الطلبة بالضحك..

- ماذا يُضحك هؤلاء العفاريت؟!

كثيرًا ما وقف أمام المرآة بقصد اكتشاف مبعث الضحك.. لم ير شيئًا!.. لم تخبره المرآة.. بل إنه كان يبتسم حين يتأمل جسده الضخم وطوله الفائق.

- لِمَ يضحكون منه إذن؟!.. ولِمَ يقابله زملاؤه بابتساماتهم الخبيثة..؟!

لقد كره الوجوه الضاحكة.. تفزعه أصوات الضحكات.. كأنها أصوات مردة مخابيل.. الابتسامات الخبيثة سمٌّ زعاف في عسل! وضع حقيبته العتيقة فوق المنضدة.. حبك نظارته السميكة العوينات.. استمر الضحك.. وكأنه لن ينقطع.. بحركة لا إرادية وضع يده على زر طربوشه.. علا الضجيج.. بالطبع، يعلم الجميع أنه موجود في هذا الفصل.. ويعلمون على مَن يضحك الطلبة.. لو يستقيل عن عمله الكريه هذا! لكن البيت فصل آخر.. لا يؤمن أحدهم بآرائه.. ويعدونه متخلفًا.. زوجته الحضرية رائدة البيت والمهيمنة على كل صغيرة وكبيرة.. ليته تزوج من بنات قريته..

كُنَّ جميعًا يحلمن به.. لو أن الماضي يعود! وماذا يقول عنه أهل القرية إن هو استقال من عمله؟ وماذا يصنع الآن؟ كيف يخرج من مأزقه.. والطلبة لا يكفُّون.. أَيَدع الفصل ويعرِّض نفسه لتوبيخ الناظرة وكلماتها القاسية؟.. تلك الناظرة تشبه زوجته.. أو أن زوجته ناظرة البيت!

النساء جميعًا هكذا.. أو يصبُّ عليهم جامَّ غضبه؟ ولكن كيف؟.. كيف وفيهم من يفوقه طولًا وعرضًا.. وقوة؟!

- كنت في شبابي فتيًّا قويًّا.. لو.. لو يعود الشباب!

لو يعلم سبب ضحكهم وصخبهم لهان الأمر ولاستطاع معالجته.. لعن الله المرآة التي دائمًا ما تجامله.. لمح أبصارهم تلتقي على السبورة خلفه.. استدار فَعَلت الضحكات.. ارتفعت أصوات الوحوش.. خلع طربوشه وسترته فبانت كرشه أمامه ولمعت «صلعته».. تبدل الصخب مظاهرة.. هتاف بكلمات خارجة.. خَبْط على الأدراج وصفير.. بدا الفصل مسرحًا يعرض مشهدًا هزليًّا! على السبورة عبارات تمس شخصه.. رسوم كاريكاتورية تسخر منه.. التفت نحوهم.. علا صوته ينهرهم.. تلاشى صوته.. شبَّك يديه من الخلف.. جعل ينحني على الطلبة واحدًا واحدًا.. يتفرس فيهم.. لقد أراد أن يكتشف الفاعل! لم يسكت الطلبة.. ولم يسعفه فكره بتصرف ما.. فكيف.. كيف يفكر؟! في عصبية، لبس طربوشه واختطف سترته وحقيبته.. وأطلق ساقيه.. زر طربوشه يتراقص.. وكرشه تهتز.. وصل إلى حجرة الناظرة يلهث ويجأر بالشكوى بكلمات غير مفهومة.. بينما تحدجه الناظرة بنظرات ملؤها الاستخفاف..!

انتقل بخياله إلى قطار العودة.. ارتجّ صحن قلبه وبان القلق في صفحة وجهه.. القطار يزعجه مثل الطلبة.. القرية ساكنة هادئة.. مناظرها تشرح الصدور وتبعث الأمان.. بائع الصحف يتجول في القطار رغم الزحام. يدوس الأقدام.. يدفع الأجسام.. يتمايل فتتمايل معه كتلة الزحام.. الناس يكشرون.. يشيحون بأياديهم ويتفوّهون باحتجاجاتهم.. يندس البائع في كتلة أخرى رافعًا رأسه حتى لا يخنقه الزحام رافعًا صوته:

- المساء.. المساء.. اقرأ.. الابن الذي قتل أباه.. المساء.. المساء.. اقرأ..

- ما زال صوت البائع يرن في سمعه.. يرجُّه رجًّا.. تململ في مكانه.. انكمش على نفسه من شدة الخوف.. تصبب جبينه عرقًا رغم برودة الجو.. أطفأ المصباح لتنقشع الصورة.. عيناه تلمعان في الظلام.. الظلام يخيفه.. أصوات الطلبة تخيفه.. وعينا الناظرة.. وعينا زوجته.. في القرية، عيون الناس تحمل الوداعة.. نظراتهم تبعث الطمأنينة.. صوت البائع يخرس كل الأصوات.. يملأ المكان ويشق سكون الليل.. هذا الصوت يزلزله.. ينكمش على نفسه أكثر.. تكوَّر.. لو خلقه الله قنفذًا لحمته الأشواك..

- ابن يقتل أباه؟!

جعل يردد هذه العبارة، وكأنه يجهل مدلولها.. أو أنه يجتهد أن يصدق معناها.. التفت برغمه إلى حجرة ابنه.. تنقلت عيناه فيما حوله.. الجو ساكن إلا من شخير زوجته.. شخير الناظرة يزعج زوجها.. ابتسم ابتسامة بلهاء.. قام كالفأر يتحسس الأرض بأصابع قدميه.. خطا

ناحية حجرة ابنه.. كتم أنفاسه.. انحنى.. نظر من ثقب الباب.. اصطدمت عيناه بالظلام.. قرَّب أذنه.. الابتسامة البلهاء على شفتيه.. وعيناه فاغرتان مذعورتان.. فرَّ فزعًا.. التصق بالحائط المقابل.. سمع ضحكة.. ابنه يضحك منه .. ذهب إلى حجرته .. شخير زوجته يعلو.. يتأفف.. كانت لطيفة في شهر العسل وما كانت تشخر!.. جعل ينظر إلى وجهها المفلطح، وصدرها المكتظ باللحم.. عقله - أيضًا - مكتظ بالأفكار العقيمة.. القطار - أيضًا - مكتظ بالناس.. رفع يمناه..

كاد يهزها ليوقظها.. كيف؟ وهي واقعة في أغوار النوم السحيقة.. ولو صحت ستصب عليه لعناتها.. اللياقة تحتم ألا يوقظها.. وليظل وحده مع أفكاره.. وحده في المدرسة وفي القطار.. وحده يعيش في الماضي.. في ربوع القرية.. كم كان يحب لعبة الاستخفاء.. وكان لا يخشى الظلام.. بل كان يندس في العتمة ليفوز.. صوت البائع في أذنيه يرن.. يخترق الحُجُب ليؤذي مسمعه.. البائع بين الطلبة والركاب.. الجميع يثرثر.. صوت البائع يلعلع.. يطغى على الثرثرة.. الابن قتل أباه حقيقة، ولن تعيده ثرثرتهم.. ولا صراخهم ولو ملأ الآفاق.. حائط المدرسة.. السور.. الطلبة يتقافزون ويقفزون هلعين.. صوت البائع يفزعهم.. الدم الأحمر يتساقط من بين أوراق الصحف.. الدم يسيل على الأرض.. من الأرض ترتفع ألسنة اللهب.. تندلع إلى السماء.. تستطيل رقابها لعلها تستجير.. تحرق ما يصادفها.. تنتقم.. الناس يصرخون.. العرق ينتح بغزارة

من رأس «زعتر أفندي».. هرول إلى الصالة.. النيران تضيء الصالة.. مرة أخرى يخطو نحو حجرة ابنه.. وينحني على ثقب الباب.. ظل فترة.. مرت ساعة أو أكثر.. ابتعد..

- إنه نائم.. لا.. بل يصطنع النوم.. السكين تحت وسادته.. يتحين الفرصة لينقض علي.. سيذبحني.. نعم.. يفكر في قتلي منذ أيام.. بلى، فقد كان شديد القلق.. وكان حائرًا.. يروح ويغدو في هذه الصالة الملتهبة.. وكان ينظر في كتابه.. لا.. بل كان يفكر في طريقة.. يحبك خيوط مؤامرة.. يومها كان باهت الوجه.. لا بد أنه يقوم من فراشه.. يخرج السكين من تحت الوسادة.. يقبض عليها.. ها هي تلمع كأسنان الناظرة حين تبتسم ساخرة.. يخطو نحو الباب.. سيفتحه الآن.. ثم ينقضّ علي ويسفك دمي.. ويراه مُراقًا...

ابتسم في فزع.. ارتعشت كل أعضائه.. ارتخت شفته السفلى.. ترنح ناحية الباب.. سأضبطه متلبسًا، وأقبض عليه قبل أن يرتكب جريمته.. وأنقذه من حبل المشنقة.. ومن وجه عشماوي المخيف.. و.. وأنقذ نفسي.. ما أحلى الحياة! لن يرى دمائي تسيل.. لن أدعهم يثرثرون..

قفز على الغرفة دافعًا الباب برجله.. انفتح الباب، واصطك بعنف في الحائط.. وأمسك.. أمسك بالظلام.. جسده ينتفض.. يده تستميت على لا شيء.. يتحسس بيديه المتشنجتين مفتاح المصباح.. يده اليسرى تلوِّح كمروحة.. تدفع نصل السكين.. بدا الهواء ثقيلًا.. شيء

يرتمي عليه ويد حديدية تقبض على رسغه.. تعتصره.. وصوت.. أو فحيح ثعبان:

- سأقتلك.. كيف تقتحم البيت وتدخل إلى هنا؟! صرخ «زعتر أفندي».. لعلعت صرخاته.. لعله يأتي مَن يخفُّ لنجدته من بين مخالب ابنه.. وأخيرًا، عثرت يده على المفتاح.. فتحه فبدا الضوء.. فوجئ الابن الذي هتف مندهشًا:

- أأنت يا أبي..؟!! كنت أحسب.. أن..

اتسعت عينا الأب وعلا صراخه..

- أتتمادى في حبْك تمثيليتك.. أتريد قتلي؟ لقد اكتشفت مؤامرتك.. ماذا.. ماذا صنعت بك يا بني لكي تقتلني؟.. أ.. أتريد أن تصنع مثله.. لتصبح حديث الناس.. لتكون مشهورًا.. الأبناء في القرية لا يقتلون آباءهم.

- أ.. أنا.. أبدًا.. إ.. إني.. إ..

- اخرس يا ولد.. لا ترفع صوتك.. ولا تقل شيئًا.

استمر صراخه كأنما وقع في مخالب أسد.. أو كأنه كلب أصيب بعيار ناري في رأسه... استيقظ أفراد المنزل.. وبعض الجيران.. هرعوا جميعًا في حذر حيث مصدر الصراخ.. كانت دهشتهم حينما رأوا الأب ماسكًا بتلابيب ابنه.. عقدت الدهشة ألسنتهم.. الأب ما زال مسترسلًا في صراخه.. أخيرًا، جاءت الأم تتثاءب حانقة.. أتى إلى سمعها صوت الزوج:

- إنه ينوي قتلي.. ألا تصدقونني.. اقبضوا عليه.. اقبضوا عليه!

على بُعد خطوات، وقفت الزوجة تنقل بصرها بين زوجها وابنها مستغربة.. حين كان الابن يعاني الذهول.. عادت تسدد نظرة نارية إلى زوجها.. امتدت يدها إلى ملابسه فسكن عن الصراخ والعواء.. واستوت يداه إلى جانبيه وجعل يتفحص الوجوه بابتسامته البلهاء.. بينما يقهقه قائلًا:

لم أمت؟!.. مستحيل.. أين الدماء؟!.. لقد رأيتها تسيل من بين الصحف.. بالأمس قالها البائع.. أو.. أو إنه يثرثر ليروج بضاعته.. الصحف خادعة.. الجرائد تنشر الأباطيل.. والبائع ولد ماكر خبيث.. لكني.. لكن الولد هددني و.. أمسك بيدي.

الابن ينظر إلى المتفرجين.. يهز رأسه نافيًا.. ولا أحد ينطق.. كشرت الأم.. خطت نحو الصالة حيث «التليفون».. أدارت القرص بعصبية.. تبعتها ابنتها وسمعتها تقول: بسرعة يا دكتور من فضلك.. زوجي في حالة غريبة.. غريبة جدًّا!!

* * *